نشيد البلبل (١)

وفيما ذكران يفكر اذا صوت تسامى اليه في سكون الليل . متنقلاً على اثناء الظلم . أحسن أيقاع لشجى ترجيع . فكان البلبل

البلبل والربيع . كالمغني والمهرجان وانما يشتد تلازمهما في مآلف لا يتعدانها الى غيرها . واحب تلك المآلف اليهما هي فروق

اذا تراءت الربى في مجاسد الخصب . وبدت أعاطها وحواشيها مطرزة ومعلمة . منمقة بمحاسن الزهر في اختلاف اشكاله والوانه . وأرتفعت التلاع في منخفض الوهاد كالمضارب . وصفت قبالتها طوائف السرح والسرو كالحواشي والجنود . اقبلت لتحتشد عند ملك عظيم . وانسلت الانهار في الاودية كالزئبق وسرت النسائم بين الصدور والارجاء بزفير او اريج . انطلق البلبل من عشه . وملأ الفضاء تطريباً

بالعشيات او بالبكور . في الروضة الغناء أو الوادي المرعّ . على الأثلات أو تحت الشبائك . عند اعتلاق الا نداء بالفضاء بين السماء والثرى . جناحاه في خفوق وسكون . وريشهُ في تجمد واستواء . يتنقل بين الاوراق الخضر والاغصان الهيف راقصاً مهريداً . كلما طرب لنغمة جاوبها مجاراة وكلما استنكر صوتاً صمت عنهُ مداراة . وهو مع كل حالاته شاعر الطبيعة . بديهاتهُ طوعهُ . وخواطره معهُ . لا يتصنع ولا يتكلف . يقيم الأوزان ويسدد القوافي بغير كد وبغير تعنت . يترفع عن تملق الملوك والزلفة عند الكرام . يتسبب ويتشبب . ويبكي ويستبكي . غناه أنين وشعره روح

ربيب الجنان وتبيعهُ يروى بماء المزن ويشمل بشذا ما تنشر الخمائل . شجي معنّى . تهيجه الذكرات وتعيثهُ الحسرات . حليف الوجد وهو اضعف المخلوقات عن حمله . يريك لساناً كريشة الكاتب . يقطر لوعة ويتحرك حزناً . وعينين مروعتين بحوادث الليالي تغضان على احسن رأس ركبت على أحسن عنق الى جثمان كالقلب بل هو اضعف وأوهن

ليت شعري ما تضمنت تلك الضلوع الضعاف . وما يهيج تلك الروح المروعة أكلف بالحرية ؟ أجل كلف بالحرية . هو مجنونها ومعذبها ومذلها بل هو على ضعفه وصغره بطلها . ما أودع قفصاً الا ومات فيه غمًّا او انتحر يأساً . يرنو الى

(١) المرحوم وفي الدين لم يكن من رواية وضعها وشرع بطبعها قبيل وفاته وذكران المذكور بطلها

ملك الله في سعته ويتسلى من محاسنه . بعيداً عنها . محجوزاً دون الجولان بينها . فيفنيه ذلك أسى ولا يستشفي عنهُ بصبر ولا جلد . آه من البلبل وآه على البلبل

طاب لدكران السماع فاصغى مستملياً . وكان البلبل يردد صوتاً كالصبا ينتضي من حيث يبتدىء لم يكدر عليهِ صفوهُ مكدر . وصفحة الأفق مجلوة كالغدير . كواكبهُ طافية على بحيرتهِ كزهر البابونج . والنسيم كأنفاس العذارى طيب ندي . فكاد دكران يصيح من شدة طربهِ . ولقد كثر تعجبهُ من البلبل . كيف تخطى الحدائق المونقة والاضواح اليانعة وأتى شجرة واحدة في زقاق ليس فيهِ شيء من البدائع التي يألفها . وكان يخيل الى دكران أن ذاك البلبل يطربهُ على تلك الشجرة . وما علم انهُ في بيت بعض الجيرة في قفص مزين تدنى على الشباك . وانهُ لما رأى رقة أديم الليل وخفة سريان النسيم وحلاوة تساقط الانداء وطيب شذا الثرى عاودتهُ سجيتهُ فأخذ يغرد

لو كان دكران شاعراً لتفجرت ينابيع خواطره ولاتى بالكثير وبالطيب . ولكنهُ كان مستشعراً فقنع بأن يحس وأن لا يقدر على تصوير ما يحس فجعل يغشى هيء الخيالات

تارة يأتي بمريم فيلبسها قميصاً شفافاً مماوي الزرقة يشف عن بياض صدرها وأكمامها . يجلسها الى جانب حوض تتلاعب في مائهِ الأسماك الحمر . مظلل بعروش الكروم . تلتف حولهُ جداول الزهر في سوسنها وتسرينها وزنبقها ووردها وقرنفلها وبنفسجها . فيجلس الى جانبها واضعاً رأسهُ الى جانب رأسها فيتشاكيان ويتباكيان وهي جزلة بقربه . مغتبطة بحسن المكان وبهجته . وبطيب الخلوة ولذتها . وآونة يأتي بخالهِ خاشادور وبامرأتهِ . فيقولان لهُ . انا نضن بك على الهم والسقم . ونشفق ان تردى مريم بحبك . فلا تمنعك الحظوة بها . خذها فهي مالك وانت ابننا . وحيناً يأتي بشبان يخطبون مريم الى ابيها . فيجود بها لأحسنهم وجهاً وأعمهم شكلاً واكملهم شارة . هنالك تقوم القيامة على دكران . فيهيم على وجههِ في البراري والقفار . أو يلجأ الى كهف في بعض الجبال فيقضي ايامهُ زاهداً في اطايب الحياة معرضاً عن سائر الناس . وما زال في انشاء الخيالات والسير مع الاوهام . حتى سكت البلبل سكتة طويلة . فانتبه دكران من تأملاتهِ . واذا ساعة الكنيسة الكبرى تدق . فعد دقاتها . فكانت اربعاً . ولاح من وراء الشباك اشفاف السحر . فتقدم دكران لينظر . فرأى الكون كالكأس المقلوب . رقة وصفاء . وقد برزت الطير من وكناتها . وللعصافير ارتفاعات ووقفات . بين الجو والثرى . وللحياة انبعاث وللمشاغل تجدد